زووم

أيها المار على قريتنا سائحا تمهل!

وضبطتك أخيرا متلبسًا..!

ترجَّل حالا من سيارتك، وضع عنك آلة التصوير التي تقلد جيدك، ومزق كل تلك الصور التي التقطتها من قبل، إنها مزيفة، أقصد إنها كاذبة ولا تنقل الأشياء كما تريد، بل كما نريد نحن.. !

أصغ إليَّ أيها السائح أرجوك،

هل جربت يوما أن تقتحم الصورة؟ هل فكرت أن تجالس أبطالها؟ أن تتجول بين معالمها؟.. ضع يدك في يدي إذن، وأعد نفسك لرحلة في أعماق الصورة.. رحلة لم تكن لتتوقعها أبدا!

اهبط من سيارتك.. !

الشمس ستحرقك؟ تذكر أن أبطال الصورة هم أيضا ليسوا مُطَرْبَشِين ولا مُقَبَّعِين.. إنهم أناس عاديون مثلك ومثلي، إلا أنهم ألفوا أنفسهم فجأة أمام الطبيعة بقرها وحرها دون غطاء أو حجاب.

أيها المارّ! لن أكون عليك قاسيًا أكثر من اللازم لأطلب منك أن تحمل على ظهرك كومة من الحطب كما يفعل ذانك الطفلان اللذان لم تطأ أقدامهما فصلا دراسيًا قط.. كل ما سأطلبه منك هو أن تنزع عنك الحذاء الرياضي الذي يساوي ثمنه عندنا أيامًا طويلة من الكد والشقاء. انزعه حتى لا يشوب الصورة نشاز وأنت صاحب الذوق الرفيع! وتعال معي، ألست سائحًا يهوى امتطاء صهوة المغامرة؟!

الأشواك تدمي قدميك؟ سيضفي ذلك جمالا على الصورة يا مصور، فلا تبال بهما وتابع مسيرك معي! انظر هناك بعيدا! ماذا ترى؟ أحسنت، ذاك جبل بالفعل، ولكن، أتدري ماذا يوجد خلف ذلك الجبل الذي يشمخ بقمته في السماء؟ خلف الجبل أيها المار تقبع قرية تحرسها الشمس نهارا، وتؤنسها النجوم ليلا. خلف الجبل يا صاحبي ما خلفه، فتعال معي لترى بأم عينيك..

أشعة الشمس تجلد ظهرينا فتلتصق الثياب بالأجساد، وأشجار الكالبتوس توشوش بينها.. تقول لك مرحبا بك خلف الجبل يا أيها المار على قريتنا على عجل، وربما تقول أشياء وأشياء.. تشعر بالظمإ الشديد، تعال إلى هذه البئر القريبة ترتوي من مائها. ندنو منها والأحجار تعترضنا. ندوسها بأقدامنا الحافية والحرارة تعتصرنا. شيخٌ ستينيٌ يدنو من البئر هو الآخر وهو يلكز حماره. آثار زمن حزين بادية على محياه. لكن أيها المار، لِمَ يستحيي هذا الشيخ أن يتقدم؟ لم خطواته يثقلها التردد؟

الرجل الذي هو الآن أمامك اسمه عباس. يعجبك لباسه البالي وسحنته النحاسية حقا؟ وتأسف لم تركت آلة التصوير بالسيارة؟ لا عليك أيها السائح الذكي، سأزودك بصور لم تكن لتلتقطها لوحدك من داخل سيارتك المكيفة تلك..

اسمع، كان ذلك قبل ما يزيد عن أربعة عشر عاما عندما جاءت سيارة تقل أسرة من المدينة إلى القرية. بعض الناس قال إنه لو لم يفعل؛ كان على الأقل سيحتفظ بماء وجهه في القرية..

وماذا فعل هذا السي عباس؟ سي عباس هذا، أيها المار، أرسل ابنته البتول مع أولئك الغرباء... فحدث ما حدث. وماذا حدث؟ سي عباس أرادها أن تشتغل خادمة هناك لتعينه على الزمان! في البداية تقبل

بعض الناس الأمر على مضض، فقد كان العام عام جفاف وقحط، وتفهموا شظف العيش وما يلزم المرء من أشياء آنذاك.. فيما تَحَفَّظَ البعض الآخر وهم الأكثرون. وقال "سي عبد الحفيظ" إمام المسجد عندما سئل في النازلة خريفئذ:

- كاد الفقر أن يكون كفرًا ... حتى العمل عبادة يا ناس.. هيا انفضوا إلى أعمالكم وانسوا شؤون الآخرين..!

أما الأستاذ " وهيب " فقال في جلسة بالمقهى غاضبا:

- ويحكم يا جاهلين! إنها جريمة نكراء في حق الطفلة والطفولة ...

لكنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأداروا ظهورهم. كيف لهم أن يزدروا كلام الفقيه الورع والعارف بالله.. في الواقع، حتى سي عباس نفسه لم يكن راضيًا عما بدر منه. ولكن، ماذا يفعل شيخ يعيش على ما تجود به الأرض، وسبعة أفواه يتحلب ريقها كلما حل ببيته؟

أيها المار، قبل أربعة عشر عامًا بالتمام كان سي عباس هذا يجلس هناك، في ذلك الركن القصي من القرية... كان يفكر: يا لخيبتي. زبيدة البنت الكبرى ... مسكينة، الكثير من الحياء والحشمة، ونصيب متواضع من الجمال. البنت تكبر ولا أحد يتقدم أو يطرق الباب ... والهاشمي؟ آه ... ذلك البغل لا يجيد سوى الالتهام والنوم. قَدَرٌ وَسُلِّطَ عليَّ ... ! وأولئك الصغار؟ سامحيني بُنَيَّتِي البتول، قذفت بك إلى حيث لا أعلم. ومرت بسي عباس سحابة ارتياح عندما تذكر الطيبوبة التي أبداها الرجل والمرأة اللذان أخذاها بعدما دلهما صهره عليه... ولكن... حدث ما حدث ... اختفت البنت بعد أشهر معدودة، ولم تترك في الأذهان غير وجه بريء ومقلتين ينط منهما حزن وأسى عميق..

- أين البتول؟
- تعمل خادمة.
- أين البتول؟
- ربما انتقلت إلى مدينة أخرى!
- أين البتول؟
- تزوجت ربما!
- أين البتول؟
- سرقت؟ هجرت؟؟ ماتت؟ ... اختفت تمامًا، ولا أحد يستطيع أن يعرف مصيرها. وبعد سنين صارت البتول حكاية منسية أيها المار، أجل حكاية لا يكاد يذكرها أحد. حادت عنها الألسنة وأسبلت عليها الجفون. وهل نسيها عباس؟ لا أحد يجرؤ على إيقاظ هم كامن دفين ينخر القلب في صمت. أُمُّها تبكي في داخلها متفاديةً تأنيب زوجها عباس الذي تعْلَمُ أنه كان يحبها. لِمَ فعل بها ذلك؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن ذلك قضاء من الله وقدر... هل نسيت أنها هي الأخرى ساهمت - ولو بقليل - في ما حصل؟ ولكن، هل كان في مقدورها آنذاك أن تحتج أو تبدي أي معارضة؟؟ عباس عنيد ولا أحد في المنزل يستطيع أن يواجه قراراته أو يثنيه عن رغباته كيف ما كانت. إِخْوة البتول الصغار لا يستطيعون أن يتذكروا من أختهم غير ملامح خابية أقبرتها رمال الزمن...

أيها المار، بما أنك تهوى التقاط الصور وتنبهر بها، فأهديك صورا لتكتمل عندك الحكاية:

الصورة الأولى: شاحنة كبيرة تقف محملة برؤوس الأغنام أمام باب منزل عباس.

الصورة الثانية: سيارة من نوع ميرسيدس تقف وراء الشاحنة.

الصورة الثالثة: شابة في الثلاثين من عمرها تترجل من الميرسيديس في تبختر، وتجر خلفها ولدين في أناقتها.

الصورة الرابعة: عناق حار وعيون تبكي ذكرى سحيقة.

الصورة الخامسة: أصابع تعد أوراق مالية في سعادة.

الصورة السادسة: في غمرة الليل، يد تشعل مصباحا يدويا وأخرى تعد رؤوس الأغنام لتطمئن أن كل شيء على ما يرام.

الصورة السابعة: فوق الجبل، تحت الشجر، قرب البئر، داخل البيوت: ألسنة طويلة وعيون شامتة و...

والآن أيها المار.. شربت واسترحت بما فيه الكفاية؟.. قم نتابع رحلتنا لترى صورا أخرى..